



# عناصر الموضوع

111	مفهوم التسخير
114	التسخير في الاستعمال القرآني
118	الأنفاظ ذات الصلة
117	دلالات التسخير العقدية
177	مظاهر التسخير
141	آثار التسخير الإيمانية على العبد
177	آثار التسخير في عمارة الأرض



### مفهوم التسخير

# أولًا:المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «سخر: السين والخاء والراء أصل مطرد مستقيم يدل على احتقار واستذلال، من ذلك قولنا سخر الله عز وجل الشيء، وذلك إذا ذلله لأمره وإرادته، ثم قال: ومن الباب: سخرت منه، إذا هزئت به، ولا يزالون يقولون: سخرت به، وفي كتاب الله تعالى: ﴿ وَإِنَّا نَسْحَرُ مِنكُمْ كُمَّا تَسْحَرُونَ ﴾ [هود: ٣٨]» (١).

والتسخير: تذليل الشيء وجعله منقادًا للآخر وسوقه إلى الغرض المختص به قهرًا، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلثَّمَ الشَّمَ الشَّمَ الْقَمَرَ دَآبِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلنَّلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلنَّلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿ وَاللّهُ اللّهُ اللّهُ على ما تريد فقد سخر لك (٢٠).

فالتسخير له معنيان:

الأول: التسخير والتذليل، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوَكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿ اللَّهُ مِنونَ: ١١٠].

والثاني: السخرية والاحتقار، ومنه قوله: ﴿وَكُنتُ مِنْهُمْ تَضْمَكُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٠]. وقد استعمل القرآن الكريم هذا المعنى اللغوي للتسخير، وعلى ذلك وردت أقوال المفسرين في بيان هذه اللفظة كما سيأتي.

### ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

والتسخير اصطلاحًا: تذليل الشيء وجعله منقادًا للآخر، وسوقه إلى الغرض المختص به قهرًا.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآبِبَيْنِ ۗ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلنَّهَارَ ﴿ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآبِبَيْنِ ۗ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلنَّهَارَ ﴿ ﴿ ﴾ [إبراهيم: ٣٣] (٢).

قال ابن عاشور: «والتسخير حقيقته تذليل ذي عمل شاق، أو شاغل بقهر وتخويف، أو بتعليم وسياسة بدون عوض»(٤).

<sup>(</sup>٤) انظر: التحرير والتنوير ٨/ ١٦٨.



<sup>(</sup>١) مقاييس اللغة ٣/ ١٤٤.

<sup>(</sup>٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٥٣، تاج العروس، الزبيدي ١١/ ٥٢٢.

<sup>(</sup>٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٠٢، بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي ٣/ ٢٠٣.

### التسخير في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سخر) في القرآن (٤٢) مرة، يخص التسخير منها (٢٧) مرة (١٠). والصيغ التي وردت هي:

المثال	عدد المرات	الصيغة
﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ [النحل: ١٤]	**	الفعل الماضي
﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضِ دَرَجَنتِ لِيَتَخِذَ بَعْضُهُم بَعْضُا سُخْرِيًا ﴾ [الزخرف:٣٢]	1	المصدر
﴿ وَبَثَ فِيهَا مِن كُلِ دَآبَةِ وَقَصْرِيفِ ٱلرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَئتِ لِقَوْمِ يَعْقِلُونَ السَّ ﴾ [البقرة: ١٦٤]	٤	اسم المقعول

وجاء (التسخير) في القرآن بمعناه اللغوي العام، وهو السياقة إلى الغرض المختص قهرًا (٢)، ومنه تسخير العبيد والأسرى، وتسخير البهائم، وكذلك تصريف الشيء غير ذي الإرادة، في عمل عجيب، يصعب استعماله فيه، بحيلة أو إلهام؛ كتسخير الفلك للمخر في البحر بالريح، وتسخير السحاب للأمطار، وتسخير النهار للعمل، والليل للسكون، وتسخير الليل للسير في الصيف، والشمس للدفء في الشتاء، والظل للتبرد (٣).

<sup>(</sup>١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٣٤٨-٣٤٨.

<sup>(</sup>٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٤٠٤.

<sup>(</sup>٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٦٨.

#### الألفاظ ذات الصلة

### ١ التذليل:

#### الذل لغة:

ضد العز، ومنه: التذليل، وهو الخضوع والانقياد والاستكانة، واللين، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَذَلَّلْنَهَا لَمُمْ فِينْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ١٠٠٠ ﴾ [يس: ٧٧]. أي: وصيرناها سهلة غير مستعصية عليهم في شيء مما يريدون بها(١).

#### التذليل اصطلاحًا:

الخضوع والانقياد والاستكانة، واللين، ومنه قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّي ٱلثَّمَرَتِ فَأَسْلُكِي سُبُلَ رَيِّكِ ذُلَّلًا يَعْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُعْنَيَفُ أَلْوَنُهُ وبِيهِ شِفَآةٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَنْفَكُّرُونَ

(النحل: ٦٩]. أي: منقادة غير متصعبة (٢).

والتذليل: جعل الشيء منقادًا من غير صعوبة، وتسهيله على وجه ينتفع منه العباد (٣٠). الصلة بين التسخير والتذليل:

أنهما بمعنى واحد، وهو تذليل الشيء، وجعله منقادًا للآخر، وسوقه إلى الغرض المختص به قهرًا، وبينهما عموم وخصوص، فالتذليل يخص الله كما يخص البشر، بينما التسخير فلا يسخر إلا الله(٤).

#### ٢ الانقباد:

#### الانقباد لغة:

الخضوع والطاعة والإذعان، تقول: قدته فانقاد، واستقاد لي، إذا أعطاك مقادته، وانقاد فلان للأمر وأعطى القياد إذا أذعن طوعًا أو كرهًا (٥٠).

انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ١٨٥، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٣١٣، تاج العروس، الزبيدي ۹/ ۷۷.



<sup>(</sup>١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٤٥، تاج العروس، الزبيدي ٢٩/ ١٣.

<sup>(</sup>٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٣٠، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ١٧ تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ١٣٧. (٣) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ١٣٧.

<sup>(</sup>٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ٣٢١.

#### الانقياد اصطلاحًا:

الخضوع والذل والطاعة والإذعان، يقال: انقاد للأمر والطريق سهل واستقام<sup>(۱)</sup>، ولا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي له.

#### الصلة بين التسخير والانقياد:

أنهما بمعنى واحد، وهو: تذليل الشيء وجعله منقادًا للآخر، وسوقه إلى الغرض المختص به قهرًا، والتسخير أعم من الانقياد، فيشمل ما كان داخلًا تحت قدرة الإنسان وتسخيره حقيقة، كالحيوان، وما كان داخلًا تحت تصرفه بتسخير وإلهام وتعليم، كتسخير الفلك(٢).

#### ٣ التسليط:

#### التسليط لغة:

التغليب، وإطلاق القهر والقدرة، يقال: سلطه الله عليه، أي: جعل له عليه قوة وقهرا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمِ بَيْنَكُمْ وَيَنْتَهُم مِيثَقُ أَوْ جَاءُوكُمْ خَصِرَتَ صُدُورُهُمْ أَن يُقْلِلُوكُمْ أَوْ الله عليه عَلَى الله عليه عَلَيْكُمْ وَيَنْتَهُم مِيثَقُ أَوْ جَاءُوكُمْ فَلَمْ يُقَلِلُوكُمْ وَالْقَوْا إِلَيْكُمُ لَيْقَالِلُوكُمْ فَإِن اعْتَرَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَلِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمُ السَّلَمُ فَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿ النساء: ٩٠] (٣).

### التسليط اصطلاحًا:

التحكم، والتمكين، والسيطرة، والقوة، والقهر، والغلبة، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءً اللَّهُ لَسَلَطُهُمْ عَلَيْهُمُ وَالْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَا جَمَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ عَلَيْكُمُ وَالْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَا جَمَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٩٠] (٤)، ولا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي له.

#### الصلة بين التسخير والتسليط:

أنهما بمعنى واحد، وهو: تذليل الشيء وجعله منقادًا للآخر، وسوقه إلى الغرض المختص به قهرًا، ولكن التسخير يقال في المحبوب والمكروه، والتسليط يقال في المكروه.

<sup>(</sup>١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧٦٥، تاج العروس، الزبيدي ٩/ ٧٧.

<sup>(</sup>٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٦٨.

<sup>(</sup>٣) انظرّ: مقاييسٌ اللغة، أبن فأرس ش/ ٩٥، لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٣٢١، تاج العروس، الزبيدي ١٩٨/ ٣٧٧.

<sup>(</sup>٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٢٠، بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي ٣/ ٢٤٦، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٤٤٣.

### دلالات التسخير العقدية

إن تسخير هذا الكون بما فيه من المنافع لهذا الإنسان العاجز الضعيف، فيه دلالة على الربوبية والألوهية وصفات الله تعالى، كما أنها تدل على البعث والنشور، وبيان ذلك من خلال النقاط الآتية:

# أولًا: دلالاته على الربوبية والألوهية:

لقد ذكر القرآن الكريم دلالة التسخير على الربوبية والألوهية.

قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْيَلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْفَكُمْ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَتُ بِأَمْرِقُهُ إِنَ فِي ذَلِكَ لَآيَنَتٍ لِقَوْمِ يَعْقِلُونَ إِلَى النحل: ١٢].

الرب: هو السيد والمالك، والخالق والمدبر، والمربي والمصلح، والقيم والمنعم، والإله: هو المعبود، أي: الذي يتوجه إليه الإنسان عند الشعور بالحاجة إلى ما يعجز عنه بكسبه ومساعدة الأسباب له، فيدعوه لكشف الضر أو جلب النفع، ويتقرب إليه بالأقوال والأعمال التي يرجى أن ترضيه، وأما اسم الجلالة الأعظم (الله) فهو اسم لرب العالمين، خالق الخلق أجمعين، الذي ينفي الموحدون الحنفاء ربوبية غيره وألوهية سواه، ويقول بعض رابوبية غيره وألوهية سواه، ويقول بعض المشركين: إنه أكبر الأرباب أو رئيسهم، وأعظم الآلهة أو مرجعهم الذي يشفعون

عنده، وكان مشركو العرب وأمثالهم ينفون وجود رب سواه، وإنما يعبدون آلهة تقربهم إليه (١).

افتتح الآية باسم الجلالة دون الضمير الذي يعود إلى ﴿رَبِّكَ ﴾ [الرعد: ١]، لأنه معين به لا يشتبه غيره من آلهتهم ليكون الخبر المقصود جاريا على معين لا يحتمل غيره؛ إبلاغا في قطع شائبة الإشراك، والذي رفع هو الخبر، وجعل اسم موصول لكون الصلة معلومة الدلالة على أن من تثبت

له هو المتوحد بالربوبية؛ إذ لا يستطيع مثل تلك الصلة غير المتوحد ولأنه مسلم له ذلك، ﴿ وَلَينِ سَأَلْتُهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَوَتِ وَالْمُرْضَ وَسَخَرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْفَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَى وَالْفَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَى وَالْفَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَى وَالْفَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَى وَالْفَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَى اللهُ فَأَنَى اللهُ فَاللهُ وَالْفَمَرَ لَيَقُولُنَ اللهُ فَأَنَى اللهُ فَاللهُ فَاللهُ وَالْفَمَرَ لَيَقُولُنَ اللهُ فَأَنَى اللهُ فَاللهُ وَاللهُ وَاللّهُ وَلّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَلَا اللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَلّهُ وَلَا اللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَا لَهُ وَلَهُ وَاللّهُ وَلَا لَهُ وَاللّهُ وَلّهُ وَاللّهُ وَلّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَلّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَلّهُ وَاللّهُ وَلّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَلّا لَالل

وقوله جل جلاله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ اللهِ عَلَقَ السَّمَوَتِ وَالْأَرْضَ فِي سِسَّةِ أَيَامِ ثُمَّ اللهُ اللهَ عَلَى الْمَرْقِي يُعْفِى الْيَسَلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ, حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجُومَ مُسَخَّرَتِ إِلَّمَ فِي اللهِ اللهُ اللهُ المُعَلَّقِينَ اللهِ اللهُ المُعَلَّقِينَ اللهِ اللهُ المُعَلَّقِينَ اللهِ اللهُ اللهُ وَبُ الْعَنْلِمِينَ اللهِ اللهُ اللهُ اللهُ وَبُ الْعَنْلِمِينَ اللهُ اللهُهُ اللهُ اللهُ

وإغشاؤه الليل النهار: هو تسخيرهما، وقوله سبحانه: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمْرَ دَآيِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ النَّيْلَ وَالنَّهَارَ اللَّهُ النَّيْلَ وَالنَّهَارَ اللَّهُ اللَّهُ النَّيْلَ وَالنَّهَارَ اللهُ اللَّهُ اللَّلْمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّالَا اللّهُ اللَّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ

وقوله جل وعلا: ﴿ وَمَالِيَةٌ لَهُمُ ٱلْيَلُ نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُظْلِمُونَ ﴿ وَالشَّمْسُ وَالشَّمْسُ عَقَرِيكُ الْعَرْمِيزِ الْعَلِيمِ عَجْرِي لِمُسْتَقَرِّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزْمِيزِ الْعَلِيمِ اللهِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاتُهُ مَنَازِلَ حَقَّ عَادَ كَالْمُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿ وَاللَّهُ مَنَازِلَ حَقَّ عَادَ كَالْمُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿ وَاللَّهُ اللَّهُ اللَّا الللَّهُ اللّ

فقد بين سبحانه إلهيته وربوبيته: بأن هذا الكون وكل ما فيه من الخيرات الكثيرة والنعم العظيمة؛ فهي منه، وتحت تدبيره وتسخيره، فيجب على عباده أن يشكروه عليها، ويعبدوه دون غيره مما عبدوه معه

"وهذه اللفتة إلى ملكوت السماوات والأرض، وإلى ظاهرة الليل والنهار، وإلى تسخير الشمس والقمر، توحي إلى الفطرة بحقيقة الألوهية التي لا يليق معها أن يكون هناك ولد ولا شريك، فالذي يخلق هذا الخلق وينشئه إنشاء، لا يحتاج إلى الولد ولا يكون معه شريك، وآية الوحدانية ظاهرة في طريقة خلق السماوات والأرض، وفي الناموس الذي يحكم الكون، والنظر المجرد إلى السماوات والأرض يوحي بوحدة الإرادة الخالقة المدبرة» (٣).

### ثانيًا: دلالاته على أسماء الله وصفاته:

لقد ذكر القرآن الكريم دلالة التسخير على أسماء الله وصفاته.

قال تعالى: ﴿ أَلَهُ اللّهُ اللّهِ سَخَّرَ لَكُمُ الْبَعْرَ لِتَجْرِى الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِنَبْنَغُواْ مِن فَضَلِهِ وَلَعَلَكُمْ مَشْكُرُونَ ﴿ وَسَخَرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَايَنتِ لِقَوْمٍ يَنْفَكَّرُونَ

وليس له من الخلق ولا من الأمر شيء (١٠). قال سيد قطب عند تفسير قوله تعالى: ﴿ عَلَوْ السَّمَنُوتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكُورُ النَّهَ عَلَى النَّهَادِ وَيُكُورُ النَّهَارَ عَلَى النَّهَادِ وَيُكُورُ النَّهَادَ عَلَى النَّهَادِ وَيُسْتَخَمَرَ النَّهَادُ وَالنَّهَادُ وَالنَّهَادُ اللَّهُ اللّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهِ اللَّهُ اللَّهَادُ اللَّهُ اللَّالَةُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ

<sup>(</sup>٢) انظر: تفسير المراغي ٨/ ١٧٤، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣٤٠.

<sup>(</sup>٣) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٣٨.

<sup>(</sup>۱) انظر: تفسير المراغي ۸/ ۱۷٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ۱۳ / ۸۰.

الجاثية: ١٢ - ١٣].

يخبر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن من فضله وإنعامه أنه سخر لخلقه هذا الكون بما فيه، فلا يوجد شيء في هذا الكون إلا وللإنسان به انتفاع من وجوه، فهو سبحانه الذي خلق البحر بهذه الخصائص، وخلق مادة الفلك بهذه الخصائص، وجعل خصائص الضغط الجوى، وسرعة الرياح، وجاذبية الأرض، وسائر الخصائص الكونية الأخرى؛ مساعدة على أن تجرى الفلك في البحر، وهدى الإنسان إلى هذا كله، فأمكنه أن ينتفع به، وأن ينتفع كذلك بالبحر في نواح أخرى: ﴿ وَلِنَبْنَغُوا مِن فَضْلِمِهُ ﴾، كالصيد للطعام وللزينة، وكذلك التجارة، والمعرفة، والتجربة، والرياضة، والنزهة، وسائر ما يبتغيه الحي من فضل الله في البحار، فالسماء لهم بناء، والأرض لهم مهاد، وفي البحر منافع عظيمة، والشمس ضياء، وفي كل مخلوق من هذه المخلوقات منافع، وقد هدى الله تعالى الإنسان للانتفاع بهذه النعم (١).

وقوله تعالى: ﴿ وَسَخَرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَتِ
وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، هذا تعميم بعد تخصيص
اقتضاه الاهتمام أولًا، ثم التعميم ثانيًا،
فمن تخصيص البحر بالذكر إلى التعميم
(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٢٢٦،
التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب

والشمول، فلقد سخر الله لهذا الإنسان ما في السماوات وما في الأرض، من قوى وطاقات، ونعم وخيرات، مما يصلح له ويدخل في دائرة خلافته: ﴿ مَيْمًا مِنْهُ ﴾، فكل شيء في هذا الوجود منه وإليه، وهو منشئه ومدبره، وهو مسخره أو مسلطه، وهذا المخلوق الصغير الإنسان، مزود من الله بالاستعداد لمعرفة طرف من النواميس الكونية، وأتاح لهم الانتفاع به في كل وجه من وجوه الانتفاع، حسب استعدادهم وقدرتهم على التصرف فيه (٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ الْمَذَكُورِ مِن بِنَكِّرُونَ ﴾، أي: في ذلك المذكور من خلقها وتدبيرها وتسخيرها؛ دال على نفوذ مشيئة الله وكمال قدرته، وما فيها من الإحكام والإتقان وبديع الصنعة وحسن الخلقة دال على كمال حكمته وعلمه، وما فيها من السعة والعظمة والكثرة دال على سعة ملكه وسلطانه، وما فيها من التخصيصات والأشياء المتضادات دليل على أنه الفعال لما يريد، وما فيها من المنافع والمصالح الدينية والدنيوية دليل على سعة رحمته، وشمول فضله وإحسانه، وبديع لطفه وبره، وكل ذلك دال على أنه المعبود الذي لا تنبغي العبادة والذل

<sup>(</sup>۲) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٢٢٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٣٣٧.

والمحبة إلا له، وأن رسله صادقون فيما جاءوا به، فهذه أدلة عقلية واضحة لا تقبل ريبًا ولا شكًا (١).

قال الرازي: «وأما الاستدلال بأحوال الشمس والقمر: فهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرُ كُلُّ يَجْرِى لِأَجَلِ لَمُسَمَّى ﴾ [الرعد: ٢].

واعلم أن هذا الكلام اشتمل على نوعين من الدلالة: النوع الأول: قوله: ﴿وَسَخَّرُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمْرَ ﴾، وحاصله يرجع إلى الاستدلال على وجود الصانع القادر القاهر بحركات هذه الأجرام، وذلك لأن الأجسام متماثلة، فهذه الأجرام قابلة للحركة والسكون، فاختصاصها بالحركة الدائمة دون السكون لا بدله من مخصص، وأيضًا أن كل واحدة من تلك الحركات مختصة بكيفية معينة من البطء والسرعة، فلا بد أيضًا من مخصص، لا سيما عند من يقول الحركة البطيئة معناها حركات مخلوطة بسكنات، وهذا يوجب الاعتراف بأنها تتحرك في بعض الأحياز وتسكن في البعض، فحصول الحركة في ذلك الحيز المعين والسكون في الحيز الآخر؛ لا بد فيه أيضًا من مرجح....

ثم قال: والنوع الثاني: من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله: ﴿ اللهُ مَرِى

# لِأَجَلِ مُسَتَّى ﴾، وفيه قولان:

الأول: قال ابن عباس: للشمس مائة وثمانون منزلًا، كل يوم لها منزل، وذلك يتم في ستة أشهر، ثم إنها تعود مرة أخرى إلى واحد منها في ستة أشهر أخرى، وكذلك القمر له ثمانية وعشرون منزلا، فالمراد بقوله: كل يجري لأجل مسمى هذا، وتحقيقه: أنه تعالى قدر لكل واحد من هذه الكواكب سيرًا خاصًا إلى جهة خاصة، بمقدار خاص من السرعة والبطء، ومتى كان بمقدار خاص من السرعة والبطء، ومتى كان لحظة ولمحة حالة أخرى ما كانت حاصلة قبل ذلك.

والقول الثاني: أن المراد: كونهما متحركين إلى يوم القيامة، وعند مجيء ذلك اليوم تنقطع هذه الحركات وتبطل تلك السيرات، كما وصف الله تعالى ذلك في قوله: ﴿إِذَا الشِّمْسُ كُوِرَتُ ﴿ اللَّهُ وَإِذَا الشَّمْسُ كُورِتُ ﴿ اللَّهُ وَإِذَا النَّجُومُ الله تعالى . (١) النكوير: ١-٢]» (٢).

وقال المهايمي: «إن ربط العالم بعضه ببعض دليل توحيده، وجعل البعض سبب البعض، دليل حكمته، وجعل الكل مسخرًا للإنسان، دليل كمال جوده، فمن أنكر هذه الآيات ولم يشكر هذه النعم، استوجب أعظم وجوه الانتقام»(۳).

<sup>(</sup>۱) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ۷۷٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ۲٥/ ۳۳۷.

<sup>(</sup>٢) مفاتيح الغيب، ١٨/ ٥٢٦.

<sup>(</sup>٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٤٢٨.

# ثالثًا: دلالاته على البعث:

لقد ذكر القرآن الكريم دلالة التسخير على البعث.

قال تعالى: ﴿ خَلَقَ السَّمَنَوَتِ وَالْأَرْضَ اِلْحَقِّ يُكُورُ الْيَّالَ عَلَى النَّهَادِ وَيُكُورُ النَّهَادَ عَلَى الْيَالِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْفَمَرُ حَكُلُّ يَجْدِى لِأَجَلِ مُسَكِّمٌ أَلَا هُوَ الْعَنزِيزُ الْغَفَّرُ ( ) ( الزمر: ٥ ].

وقال سبحانه: ﴿ اللّهُ الّذِي رَفَعَ السّمَنوَتِ بِغَيْرِ عَدِ تَرَوْنَهَا ثُمُّ السّتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَرَ الشّمْسَ وَالْفَمَرُّ كُلُّ يَعْمِي لِأَجَلِ مُسَمَّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآينتِ لَعَلَكُم بِلِقَالِ رَبِّكُمْ تُوقِئُونَ ﴿ آ ﴾ [الرعد: ٢].

فقد بين سبحانه أن هذا الكون وكل ما فيه من الخيرات الكثيرة والنعم العظيمة، وهذه الصفات الدالة على كمال قدرته، دليل على قدرته في البعث والإعادة، فخلق السماوات والأرض، وتسخير الشمس والقمر؛ هو تذليلهما للعمل على ما جعل الله لهما من نظام السير، سير المتبوع والتابع.

وعطفت جملة ﴿وَسَخَّمَرُ ٱلشَّمْسَى وَالْفَمَرَ ﴾ على جملة ﴿يُكَوِّرُ ٱلْيَّالُ عَلَى النّهَارِ ﴾؛ لأن ذلك التسخير مناسب لتكوير الليل على النهار وعكسه، فإن ذلك التكوير من آثار ذلك التسخير. فتلك المناسبة اقتضت عطف الجملة التي تضمنته على الجملة التي قبلها.

والأجل: هو أجل فنائهما، فإن جريهما لماكان فيه تقريب فنائهما جعل جريهما كأنه لأجل الأجل، أي: لأجل ما يطلبه ويقتضيه أجل البقاء.

ويجوز أن يكون المراد بالأجل: أجل حياة الناس الذي ينتهي بانتهاء الأعمار المختلفة، وليس العمر إلا أوقاتًا محدودة وأنفاسًا معدودة، وجري الشمس والقمر تحسب به تلك الأوقات والأنفاس، فصار جريهما كأنه لأجل.

والمسمى: المجعول له وسم، أي: ما به يعين، وهو ما عينه الله لأن يبلغ إليه.

ويشهد لهذا حديث أبي ذر، رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يومًا: (أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟) قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة، فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي، ارجعي من حيث بم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت بثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة، ولا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي، ارجعي من حيث العرش، فتخر ساجدة، ولا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي، ارجعي من حيث بمت بعري لا يستنكر الناس منها شيئًا حتى بنتهي إلى مستقرها ثمن مطلعها، ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئًا حتى بنتهي إلى مستقرها ذاك تحت العرش، فيقال لها: ارتفعي أصبحي طالعة من مغربك،

فتصبح طالعة من مغربها)، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتدرون متى ذاكم؟ ذاك حين ﴿لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيكُنْهَا لَرَ تَكُنْ ءَامَنَتَ مِن مَبْلُ أَوْكُسَبَتْ فِي إِيمَنْهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام: ٥٨])(١)(١).

وقوله تعالى: ﴿اللّه هُوَالْعَزِيرُ الْفَقَارُ ﴾،
أي: أن الذي فعل هذه الأفعال وأنعم على خلقه هذه النعم، هو العزيز في انتقامه ممن عاداه، الغفار لذنوب عباده التائبين إليه منها بعفوه لهم عنها، والجملة استئناف ابتدائي، هو في معنى الوعيد والوعد، فإن وصف العزيز كناية عن أنه يفعل ما يشاء لا غالب له، فلا تجدي المشركين عبادة أوليائهم، ووصف الغفار مؤذن باستدعائهم إلى التوبة باتباع الإسلام، وفي وصف الغفار مناسبة لذكر الأجل؛ لأن المغفرة يظهر أثرها بعد البعث الذي يكون بعد الموت، وانتهاء الأجل تحريضا على البدار بالتوبة قبل الموت حين يفوت التدارك (٢٠).

وقوله تعالى: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيِنَتِ لَمَلَكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ نُوقِنُونَ﴾، أي: يبين الآيات التي تدل

على أن من قدر على خلق هذه الأشياء وتسخيرها قادر على البعث والإعادة، وتسخيرها أي: تتيقنوا وتتحققوا، أو لتعلموا علم اليقين القاطع الذي لا شك فيه أن الله قادر على البعث والإعادة، والحساب والجزاء، وإحياء الموتى من القبور في أي مكان دفنوا، في البر أو البحر أو في أجواف الحيوان (3).

قال الشوكاني: «والمراد من هذا: تنبيه العباد أن من قدر على هذه الأشياء فهو قادر على البعث والإعادة، ولذا قال: ﴿لَمَلَكُم لِلْقِلْوَرَكُمُ مُوقِنُونَ ﴾ [الرعد: ٢]. أي: لعلكم عند مشاهدة هذه الآيات توقنون بذلك لا تشكون فيه، ولا تمترون في صدقه»(٥).

<sup>(</sup>۱) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، رقم ۱۳۸/۱،۱۵۹.

<sup>(</sup>۲) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ۲۳/ ۳۲۹.

 <sup>(</sup>۳) انظر: جامع البيان، الطبري ۲۱/ ۲۰۵، التحرير والتنوير، ابن عاشور ۲۳/ ۲۰۹، التفسير المنير، الزحيلي ۱۰٤/ ۱۰۶.

 <sup>(</sup>٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/
 ١٣٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/
 ٢٧٩.

<sup>(</sup>٥) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٧٧.

### مظاهر التسخير

إن الله تعالى سخر كل ما في هذا الكون لخدمة العباد واستخراج جميع ما فيها من المنافع والخيرات الدينية والدنيوية، فسخر الشمس والقمر والأرض وسخر ما يركب ويؤكل ويلبس، وبيان ذلك من خلال النقاط الآتية:

# أولًا: تسخير الشمس:

من نعم الله العظيمة تسخير الشمس في منافع العباد.

قَالَ تعالى: ﴿إِنَ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَتِ وَالْأَرْضَ فِي سِستَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ السّتَوَىٰ عَلَى السّمَوَةِ وَالْأَرْضَ فِي سِستَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ السّتَوَىٰ عَلَى الْمَرْشِ يُعْشِى النَّهَلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْفَرَشِ يُعْقِيدًا وَالشَّمْسَ وَالْفَصَرَ وَالنَّجُومَ مُسَخَرَتِ بِأَمْرِقِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْفَرَقُ بَبَارِكَ اللهُ رَبُّ الْمَنامِينَ ﴿ وَاللَّمْنُ تَبَارِكَ اللهُ رَبُّ الْمَنامِينَ ﴿ وَاللَّمْنُ تَبَارِكَ اللهُ رَبُّ الْمَنامِينَ ﴿ وَاللَّمْنُ اللهُ وَلِهُ اللهُ مَنْ اللهُ وَلَا لَهُ اللهُ اللهُ وَاللّهُ وَلَيْ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ وَاللّهُ وَلَا اللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَهُ وَاللّهُ وَلّهُ وَاللّهُ وَلّهُ اللّهُ اللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَلّهُ وَلّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ وَلّهُ وَل

وقال سبحانه: ﴿وَسَخَرَ لَكُمُ ٱلْتَلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَتُ ا بِأَمْرِهُ إِنَ فِي ذَلِكَ لَآيِنَتِ لِقَوْمِ بَعْقِلُونَ ﴿آلَ﴾ [النحل: ١٢].

بينت الآيات: أن من نعم الله على العباد تسخير الشمس والقمر لمنافعهم، وتأثير الشمس والقمر أظهر الآثار السماوية، وتأثير الشمس أظهر من تأثير القمر، وأظهر الآثار بعد الشعاع التسخين الحاصل منه، ولولا ذلك ما كان كون ولا فساد، ولا استحالة

ولا ليل، ولا نهار ولا فصول، ولا مزاج ولا حيوانات، ولا غيرها، ومن آثارهما انتشار الضوء (١)، ومعرفة عدد السنين والحساب، وتأثيرهما في إزالة الظلمة، وإصلاح النبات والحيوان، فالشمس سلطان النهار، والقمر سلطان الليل، فلولا الشمس لما حصلت الفصول الأربعة، ولولاها لاختلت مصالح العالم بالكلية (٢).

ومنافع الشمس والقمر اللذين سخرهما الله لأهل الأرض لا يحصيها إلا الله، وقدم القرآن الكريم ذكر الشمس على القمر، لأن نعمة الشمس أكثر نفعًا وأعم فضلًا من نعمة القمر.

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ ثُورًا وَجَعَلَ الشَّمَسُ سِرَاجًا ﴿ وَجَعَلَ الْفَيْمَسُ سِرَاجًا ﴿ وَالْحِدَ ١٦].

وقدم هنا القمر على الشمس، قيل: لمراعاة الفاصلة، وقيل: لأن انتفاع أهل السموات العائد عليهن الضمير به أكثر<sup>(٣)</sup>.

وقال سبحانه: ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاةً وَالْقَمَرُ ثُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَاذِلَ لِنَمْ لَمُوا عَدَدَ السِّينِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ [يونس: ٥].

وقال جل وعلا: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ

<sup>(</sup>١) انظر: روح المعاني، الألوسي ٧/ ٢١٠.

<sup>(</sup>٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٣٩١/ ١١٩.

<sup>(</sup>٣) انظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٣/ ٤٢، التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية، على صبح ص ١٣٩.

ءَايَنَيْنُ فَمَحَوْناً ءَايَةَ ٱلَّتِلِ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضَلًا مِن تَيْكُمُ وَلِتَعْسَلُمُواْ عَــُدُ ذَا لِسِينِينَ وَالْجِسَابُ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضَلْنَهُ تَفْصِيلًا 📆 [الإسراء: ١٢].

إلى غير ذلك من الآيات المبينة لذلك التسخير لأهل الأرض(١).

وقوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآيِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ 📆 🗘 [إبراهيم: ٣٣].

أي: دائمين في سيرهما وإنارتهما ودرئهما الظلمات، وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات، وأصل الدأب: العادة المستمرة (Y).

قال على صبح: «ومن روعة الإعجاز في التصوير القرآني في مجال ذكر النعم التي سخرها الله تعالى لعباده؛ لينتفعوا بها، مع تأتى النعمة الأكثر نفعًا والأعظم فضلًا للعباد متقدمة على ما دونها في النفع والفضل؛ لذلك تقدمت الشمس على القمر، لأن نعمة الشمس أكثر نفعًا وأعم فضلًا من نعمة القمر، ويؤيد هذا اتساق الآيات بعضها مع بعض، وتلاؤم ما بعدها وما قبلها في ترابط وتلاحم وثيق»<sup>(۳)</sup>.

وقال سيد قطب: «إن هذا المخلوق الصغير .. الإنسان .. يحظى من رعاية الله سبحانه بالقسط الوافر، الذي يتيح له أن يسخر هذه الخلائق الكونية الهائلة، وينتفع بها على شتى الوجوه، وذلك بالاهتداء إلى سنن الكون الإلهى الذي يحكمها، والذي تسير وفقه ولا تعصاه! ولولا هذا الاهتداء إلى طرف السر ما استطاع الإنسان بقوته الهزيلة المحدودة أن ينتفع بشيء من قوى الكون الهائلة، بل ما استطاع أن يعيش معها وهو هذا القزم الصغير، وهي هذه المردة الجبابرة من القوى والطاقات والأحجام والأجرام، والبحر أحد هذه الجبابرة الضخام التي سخرها الله للإنسان، فهداه إلى شيء من سر تكوينها وخصائصها عرف منه هذه الفلك التي تمخر هذا الخلق الهائل، وهي تطفو على ثبج أمواجه الجبارة ولا تخشاها!» (٤).

## ثانيًا: تسخير الأرض:

سخر الله عز وجل الأرض لعباده وذللها وهيأها لهم.

قال تعالى: ﴿ أَلَدْ تَرَأَنَّ ٱللَّهُ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِ ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلُكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ. وَيُمْسِكُ ٱلسَّكَالَة أَن تَقَعَ عَلَى ٱلأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِيةً إِنَّ ٱللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُونٌ رَّحِيدٌ ١٠٠ [الحج: ٦٥].

<sup>(</sup>٤) في ظلال القرآن ٥/ ٣٢٢٦.

<sup>(</sup>١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢٦٤.

<sup>(</sup>٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ١٧٤، روح

المعاني، الألوسي ٧/ ٢١٠. (٣) التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية، علي صبح ص ٩٣٦.

وقال جل وعلا: ﴿ وَسَخَرَ لَكُمُ مَّا فِي ٱلسَّمَوَاتِ
وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنَهُۚ إِنَّ فِي ذَالِكَ ٱلْآبِنَتِ لِقَوْمِ
يَنْفَكُرُونَ اللَّهُ [الجائية: ١٣].

بينت الآيات: أن الله تعالى سخر لخلقه ما في السماوات وما في الأرض، من دابة، وشجر، وجبل، وجماد، وسفن، وغير ذلك لمنافعكم ومصالحكم.

وبدأ بذكر السموات والأرض لأنهما أصلان يتفرع عليهما سائر ما يذكر بعد من النعم، ﴿ مَيمًا مِنْهُ ﴾، أي: نعمة منه عليكم، فإياه فاحمدوا واشكروا.

الذلول: فعول بمعنى مفعول، وهو مبالغة في التذليل، تقول: دابة ذلول بينة الذل، وهو تمكين الانتفاع منها عن تسهيل الاستقرار عليها وتثبيتها بالجبال، كقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَنْهَا آلَ أَرْسَنْهَا آلَ أَرْسَنْهَا آلَ مَنْهَا مَنْهَا مَنْهَا مَنْهَا أَلَى مَنْهَا الله مَنْها مِنْها مَنْها مِنْها مِنْها مَنْها مَنْها مِنْها مَنْها مَنْها مَنْها مَنْها مَنْها الله مَنْها مَنْها مَنْها مِنْها مَنْها مَنْها مُنْها مُنْها مَنْها مُنْها مُنْها مِنْها مُنْها مُنْها مُنْها مُنْها مِنْها مُنْها مِنْها مُنْها مِنْها مِنْها مُنْها مُنْها مُنْها مُنْها مُنْها مِنْها مُنْها م

لَكُورَلِأَنْفَيكُونَ النازعات: ٣٠-٣٣](١).

ومن تسخيرها: استخراج جميع ما فيها من المنافع والخيرات الدينية والدنيوية، فذللها لنا لنحرثها ونزرعها ونغرسها، ونستخرج معادنها وبركتها، وجعلها طوع علومنا وأعمالنا؛ لنستخرج منها الصناعات على النافعة، فجميع فنون الصناعات على كثرتها وتنوعها وتفوقها -لاسيما في هذه الأوقات- كل ذلك داخل في تسخيرها لنا، وقد عرفت الحاجة بل الضرورة في المنائع إلى ما لا حد له، وقد ظهر في هذه الأوقات من موادها وعناصرها أمور فيها لؤائد عظيمة للخلق.

قال تعالى: ﴿ فَأَلْنَنَا فِيهَا حَبَّا اللهَ وَعِنَا وَفَضَّا ( ) وَزَيْثُونَا وَغَلَا ( ) وَحَدَابِنَ غُلَا ( ) وَقَلِكُهُ وَأَبَّا ( ) مَنْعَا لَكُو وَلِأَفْنَيكُو ( ) } [عبس: ٢٧ – ( ) .

وقوله سبحانه: ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ اللَّهِ فَيَهَا فَنَكِهَةً وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ اللَّهُ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ اللَّهُ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ اللَّهُ وَالنَّخْلُ اللَّهُ وَالنَّخْلُ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ وَالنَّهُ اللَّهُ اللَّهُ وَالنَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ وَالنَّهُ اللَّهُ اللَّهُ وَالنَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللّهُ اللَّهُ اللَّالَّةُ اللَّهُ اللّهُ الللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ ا

(۱) انظر: جامع البيان، الطبري ۲۲/ ۲۰، الهداية، مكي بن أبي طالب ۱۰/ ۲۷۷۶، روح المعاني، الألوسي ۷/ ۲۱۱. وَأَسْفَيْنَكُمْ مَّاهُ فُرَاتًا ١٠٠٠]. [المرسلات: ٢٥-٢٧].

أي: أن من تسخير الله تعالى للأرض أن جعلها كفاتًا للإنسان في حياته؛ بتسهيل معيشته منها وحياته على ظهرها، فإذا مات كانت له أيضا كفاتًا بدفنه فيها.

ومما يشير إلى هذه المعانى كلها قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَكَ لَكُمُ ٱلأَرْضَ ذَلُولًا ۗ فَأَمْشُواْ فِي مَنَاكِبُهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ ۚ وَإِلَيْهِ ٱلنَّشُورُ (الملك: ١٥]؛ لترتبه على ما قبله بالفاء، أي: بسبب تذليلها بتيسير المشى في أرجائها، وطلب الرزق في أنحائها؛ بالتسبب فيها من زراعة وصناعة وتجارة إلخ.

والأمر في قوله تعالى: ﴿فَأَمَشُوا فِي مَنَاكِبُهَا وِّكُواْمِن رِّزْقِهِ ﴾، للإباحة، ولكن التقديم لهذا الأمر بقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَـٰلَ لَكُمُ ۗ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا ﴾، فيه امتنان من الله تعالى على خلقه، مما يشعر أن في هذا الأمر مع الإباحة توجيهًا وحثًا للأمة على السعى والعمل والجد، والمشي في مناكب الأرض من كل جانب؛ لتسخيرها وتذليلها، مما يجعل الأمة أحق بها من غيرها.

وعليه، فقد وضع القرآن الأمة الإسلامية في أعز مواضع الغني، والاستغناء والاستثمار والإنتاج، فما نقص عليها من أمور دنياها إلا بقدر ما قصرت هي في القيام بهذا العمل وأضاعت من حقها في هذا

الوجود(١).

# ثالثًا: تسخير البحر لاستخراج المأكل والملس:

لقد ذكر القرآن الكريم تسخير البحر لاستخراج ما يؤكل ويلبس منه.

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًا وَتَسْتَغْيِثُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتُرَى ٱلْفُلُكَ مُوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضَالِهِ، وَلَمَاكُمُ تَشَكُّرُونَ ١٤].

يخبر تعالى في هذه الآية أنه هو الذي سخر البحر، وهو الذي سخر ما فيه من منافع للناس، وهذه نعمة عظيمة من الله؟ حيث جعل البحر مستودعًا لا ينضب لمادة غذائية تعتبر شيئًا أساسيًا في حياة معظم الشعوب، يتناولونها من البحر دون أن يخسروا مالًا وجهدًا في تربيتها، ولولا ذلك لضاقت معيشة أكثر الناس؛ حيث إن عليها اعتمادهم في الغذاء، وبها يتجرون ويتكسبون، ومن رحمة الله إباحتها حية وميتة في الحل والإحرام، حيث يؤكل منها السمك الطري.

والطرى: ضد اليابس، ووصف سبحانه لحم أسماكه بالطراوة، لأن أكله في هذه الحالة أكثر فائدة، وألذ مذاقًا، فالمنة بأكله

<sup>(</sup>١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٢٣٨، القواعد الحسان، السعدي ص ٧١.

على هذه الحالة أتم وأكمل.

وقيل: في وصفه بالطراوة، تنبيه إلى أنه ينبغي المسارعة إلى أكله؛ لأنه يسرع إليه الفساد والتغير، وقد أثبت الطب أن تناوله بعد ذهاب طراوته من أضر الأشياء، فسبحان الخبير بخلقه، ومعرفته ما يضر استعماله وما ينفع، وفيه أيضًا إيماء إلى كمال قدرته تعالى في خلقه الحلو الطري في الماء المر الذي لا يشرب(١).

وقوله تعالى: ﴿وَتَسَتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْكُهُ تَلْبَسُونَهَا ﴾، أي: لتستخرجوا منه ما يتحلى به نساؤكم كاللؤلؤ والمرجان وما يشبههما، وأسند اللبس إليهم لأنهن من جملتهم، ولأنهن يتزين بها لأجلهم، والحلية: اسم لما يتحلى به الناس، وجمعها حلى وحلى، يقال: تحلت المرأة إذا لبست الحلي، والتعبير بقوله سبحانه: ﴿وَتَسَتَخْرِجُوا ﴾ يشير إلى كثرة الإخراج فالسين والتاء للتأكيد، كما يشير إلى أن من الواجب على المسلمين أن يباشروا بأنفسهم استخراج ما في البحر من كنوز، وألا يتركوا ذلك لأعدائهم (٢).

ومما جاء في بهيمة الأنعام قوله تعالى:

(۱) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ۷/ ۲۷۷، الوسيط، طنطاوي ۸/ ۱۱۸، عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ۲٤٠.

(۲) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ۳/ ۲۲۲، الوسيط، طنطاوي ۸/ ۱۱۸.

﴿ وَإِنَّ لَكُوْ فِي الْأَنْمَائِهِ لَعِبْرَةً نَّشُقِيكُمْ مِّمَا فِي بُطُونِهِ عَلَى بَعْلَوْ الْمُلُونِينَ مِنْ بَيْنِ فَرْثِ وَدَهِ لَبَنَا خَالِمُهَا سَاَبِغَا لِلشَّدِيِينَ اللَّ وَيَن فَرَثِ وَدَهِ لَبَنَا خَالِمُهُا سَاَبِغَا لِلشَّدِينِينَ النَّخِيلِ وَاللَّعْنَابِ لَنَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَيِن ثَمَوْنِ اللَّهُ لَلْمَنَا لِللَّهُ لِلْمَالَةُ لِمَوْقِهِ يَعْقِلُونَ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآئِيةً لِمُقَوِمٍ يَعْقِلُونَ اللَّهُ لَلْمَا لَهُ لِمُقَالِمِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ اللهُولِي اللهُ اللهُ

وقوله جل وعلا: ﴿أَوَلَة بَرُواْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتَ أَيْدِينَا أَنْعَكُمَا فَهُمْ لَهُ الْمَلِكُونَ ﴿ وَذَلَلْنَهَا لَمُنْمُ فَمِنْهَا رَكُونُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُونَ ﴿ فِيهَا مَنَفِعُ وَمَشَارِبِّ أَفَلًا يَشْكُرُونَ ﴿ [س. ٢١-٧٣].

لقد خلق الله سبحانه وتعالى بهيمة الأنعام لمصالح عباده، وجعلها مذللة مسخرة لقضاء شؤونهم الحياتية، إذ منها طعامهم وشرابهم ولباسهم وأثاثهم وخباؤهم وركوبهم وجمالهم.

وعلى الرغم من أن هذه البهائم تملك من القوة الجسمية والعضلية أضعاف ما يملكه الإنسان؛ إلا أن سنة التسخير قد سلبها المقاومة والتمرد على إرادة الإنسان وتدبيره، وهذا ما يوجب أداء حق الشكر لله سبحانه وتعالى، ولو ترك أمر تذليل هذه المخلوقات للإنسان لعجز عن تذليل ذبابة كما عجز من خلقها، ولكنها المشيئة الإلهية وقدرته في الخلق والتذليل والتسخير (٣).

قال القاسمي: «والسر في إفراده هذه



<sup>(</sup>٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٢٤١، مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم ص ١٣٨.

النعمة، والتذكير بها دون غيرها من نعمه وآلائه، أن بها حياة العرب وقوام معاشهم، إذ منها طعامهم وشرابهم ولباسهم وأثاثهم وخباؤهم وركوبهم وجمالهم، فلولا تفضله تعالى عليهم بتذليلها لهم، لما قامت لهم قائمة، لأن أرضهم ليست بذات زرع، وما هم بأهل صناعة مشهورة، ولا جزيرتهم متحضرة متمدنة، ومن كانوا كذلك، فيجدر بهم أن يذكروا المتفضل عليهم بما يبقيهم، ويشكروه ويعرفوا له حقه، من عبادته وحده وتعظيم حرماته وشعائره، فالاعتبار بها من ذلك، موجب للاستكانة لرازقها، والخضوع له والخشية منه، هذا أولًا. وثانيًا: قد يقال: إنما أفردت لتتبع بما هو البر الأعظم والخير الأجزل، وهو مواساة البؤساء منها، نظير الآية -على ما ظهر لنا- قوله تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَلْذَا ٱلْبَيْتِ اللَّهِ ٱلَّذِي أَطْعَمَهُم مِن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِنْ خَوْفٍ اللهِ [قريش: ٣-٤]. فإن ذلك من أجل ما يرضيه تعال<sub>م .</sub>«راً.

وقال سيد قطب: «إن هذه الأنعام التي خلقها الله لهم وملكهم إياها، وذللها لهم، يركبونها، ويأكلون منها، ويشربون ألبانها، وينتفعون بها منافع شتى، وكل ذلك من قدرة الله وتدبيره، ومن إبداعه: ما أودع من الخصائص في الناس والأنعام، فجعلهم

قادرين على تذليلها واستخدامها والانتفاع بها، وحين ينظر الإنسان إلى الأمر بهذه العين وفي هذا الضوء الذي يشيعه القرآن الكريم؛ فإنه يحس لتوه إنه مغمور بفيض من نعم الله، فيض يتمثل في كل شيء حوله، وتصبح كل مرة يركب فيها دابة، أو يأكل فيها قطعة لحم، أو يشرب جرعة من لبن، أو يتناول قطعة من سمن أو جبن، أو يلبس ثوبًا من شعر أو صوف أو وبر، لمسة وجدانية، تشعر قلبه بوجود الخالق ورحمته ونعمته، ويطرد هذا في كل ما تمس يده من أشياء حوله، وكل ما يستخدمونه في حي أو جامد في هذا الكون الكبير، وتعود حياته كلها تسبيحًا لله وحمدًا، وعبادة آناء الليل وأطراف النهار (٢).

وفي هذه الآية: دعوة للمؤمنين إلى استغلال هذه النعمة العظيمة والاستفادة منها بكل الوسائل الممكنة والمتاحة، وشكر الله تعالى عليها.

### رابعًا: تسخير ما يركب:

من نعم الله تعالى على عباده تسخير ما یرکب.

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلُّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَنِي مَا تَرْكَبُونَ اللهُ لِتَسْتَوُا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَيْكُمْ إِذَا

<sup>(</sup>٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٧٦.

<sup>(</sup>١) محاسن التأويل ٧/ ٢٤١.

أَسْتَوَيْثُمُّ عَلَيْهِ وَيَقُولُوا سُبْحَنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَانَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهِل

يخبر جل وعلا في هذه الآية خلقه بما سخر لهم من قوى وطاقات، ووسائل المواصلات والنقل والتجارة، وأنه هو الذي سخر لهم ما يركبونه في البر والبحر من الفلك، التي هي السفن، ومن الأنعام والدواب وغيرها من كل ما يركب، فيدخل فيه الطائرات والغواصات والسيارات على اختلاف أنواعها.

والتسخير: التذليل والتطويع، وتسخير الله الدواب هو: خلقه إياها قابلة للترويض فاهمة لمراد الراكب، وتسخير الفلك حاصل بمجموع خلق البحر صالحًا لسبح السفن على مائه، وخلق الرياح تهب فتدفع السفن على الماء، وخلق حيلة الإنسان لصنع الفلك، ورصد مهاب الرياح، ووضع القلوع والمجاذيف، ولولا ذلك لكانت قوة الإنسان دون أن تبلغ استخدام هذه الأشياء القوية، ولهذا عقب بقوله: ﴿وَمَا كُنّا لَهُ. الجسدية، أي: مطيقين، أي: بمجرد القوة الجسدية، أي: لولا التسخير المذكور (١١).

وقوله تعلى: ﴿وَبَعَمَّلُ لَكُمُ مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَكِرِ مَاتَرَكَبُونَ﴾ إن تسخير وسائل النقل

(۱) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ۲۰/ ۱۷۵، بيان المعاني،عبد القادر العاني ٤/ ٣٣، أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٨٦.

والمواصلات من الأنعام والدواب والسفن والسيارات والطائرات، وغيرها من وسائل النقل من أعظم النعم على البشرية.

وهذا التسخير سهل للناس سبل الحياة، ولذلك يمتن الله على عباده بتسخيرها، وجيء بفعل جعل مراعاة؛ لأن الفلك مصنوعة وليست مخلوقة، والأنعام قد عرف أنها مخلوقة؛ لشمول قوله: ﴿ خَلَقَ الأَزْنَحَ ﴾ إياها، ومعنى جعل الله الفلك والأنعام مركوبة: أنه خلق في الإنسان قوة التفكير التي ينساق بها إلى استعمال الموجودات في نفعه، فاحتال كيف يصنع الفلك ويركب فيها، واحتال كيف يروض الأنعام ويركبها.

وقدم الفلك على الأنعام؛ لأنها لم يشملها لفظ الأزواج، فذكرها ذكر نعمة أخرى، ولو ذكر الأنعام لكان ذكره عقب الأزواج بمنزلة الإعادة، فلما ذكر الفلك بعنوان كونها مركوبًا عطف عليها الأنعام، فصار ذكر الأنعام مترقبًا للنفس لمناسبة جديدة (٢).

ولما كانت هذه النعمة عظيمة، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ تَذَكُرُوا نِعْمَةً رَبِّكُمُ إِنَا استَوَيْتُمُّ عَلَيْهِ ﴾، أي: تذكروها بقلوبكم معترفين بها مستعظمين لها ثم تحمدوا عليها

<sup>(</sup>۲) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ۲٥/ ۱۷۳.

بألسنتكم، وتقييدها في هذه الحالة وقت 
تبوء النعمة؛ لأن كثيرًا من الخلق تسكرهم 
النعم، وتغفلهم عن الله، وتوجب لهم 
الأشر والبطر، فهذه الحالة التي أمر الله بها 
هي دواء هذا الداء المهلك، وهذا يشير إلى 
أن الإنسان إذا غفل عن ذكر الله، والنعمة 
غائبة عنه، فإنه لا ينبغى أن يغفل والنعمة 
حاضرة بين يديه، يعيش فيها وينعم بها، 
وتقولوا سبحان الذي ذلله وجعله منقادًا لنا، 
وتقولوا سبحان الذي ذلله وجعله منقادًا لنا، 
متعجبين من ذلك، وليس الإشارة للتحقير، 
بل تصوير الحال وفيها مزيد تقرير لمعنى 
التعجب، والكلام -وإن كان إخبارًا على ما 
سمعت أولًا- يشعر بالطلب(۱).

# خامسًا: تسخير بني آدم بعضهم لبعض:

سخر الله تعالى العباد بعضهم لبعض. قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِلَ هَلَا اللَّهُرَءَانُ عَلَىٰ رَجُلِ مِنَ الْقَرْبِتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿ اللَّهِ الْقَرْيَقِسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِكَ عَنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضِ دَرَجَتِ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضَا سُخْرِيًا وَرَحْمَتُ رَبِكَ خَيْرٌ مِمَا يَجْمَعُونَ ﴿ الرَحْرَفَ الرَّعَ اللهِ عَلَىٰ اللهِ عَلَىٰ اللهِ عَلَىٰ اللهِ عَلَىٰ اللهِ عَلَىٰ اللهِ عَلَىٰ

### ذكرت الآية أن الله تعالى هو الذي يقسم

(۱) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ۲٥/ ۱۷۵، تيسير اللطيف المنان، السعدي ص ٣٤٥، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٣/ ١١٣، تفسير الشعراوي ١٧/ ١٠٧٢١.

فضله بين أهل الفضل، على حسب علمه بمواقع الاختيار، ومن يصلح له ممن لا يصلح، وهو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات، وقسم بينهم معايشهم ودرجات التفضيل، فهو القاسم ذلك وحده لا غيره، وهو الذي جعل لكل واحد من عباده درجة معينة في الأرزاق والأخلاق، والمحاسن والمساوي، والمناظر والأشكال والألوان.

وجعل لكل واحد من السعداء والأشقياء في الدنيا درجة معينة من موجبات السعادة وموجبات الشقاوة، ومنهم من يعيش بالحلال، ومنهم من يعيش بالحرام.

وجعل الله تعالى هذا التفاوت بين العباد لحكمة؛ لأنه لو سوى بينهم في كل هذه الأحوال لم يخدم أحد أحدًا، ولم يصر أحد منهم مسخرًا لغيره، وحينتذ يفضي ذلك إلى خراب العالم وفساد نظام الدنيا.

وفي هذا التفاوت الذي بين الناس، وفي درجات التفاضل المقسومة بينهم، يتحرك الناس، فيلحق المتأخر بالمتقدم، ويسعى المتقدم ليلحق بمن تقدم عليه وفضله، أو ينزل عن مكانه الذي هو فيه ليأخذه غيره.

وهكذا يتحرك الناس في الحياة صعودًا وهبوطًا، ويتبادلون المواقف، ويتنازعون منازل الفضل، وبهذا تظل ريح الحياة في حركة دائمة مجددة، يتنفس فيها الناس

أنفاس الأمل، والقوة، والحياة (١).

وقد أوضح تعالى الحكمة من هذا التفاضل والتفاوت في الأرزاق والحظوظ، والقوة والضعف، ونحو ذلك، فقال تعالى: والقوة والضعف، ونحو ذلك، فقال تعالى: ولِيَحْمُم بَعْضًا سُخْرِيًا في أي: يخدم بعضهم بعضًا، ويسخر بعضهم لبعض؛ لأن نظام العالم في الدنيا يتوقف قيامه على ذلك. فمن حكمته جل وعلا أن يجعل هذا فقيرًا مع كونه قويًا قادرًا على العمل، ويجعل هذا ضعيفًا لا يقدر على العمل بنفسه، ولكنه تعالى يهيء له دراهم يؤجر بها ذلك الفقير القوي، فينتفع القوي بدراهم الضعيف، والضعيف بعمل القوي؛ فتنتظم المعيشة والكل منهما.

وهكذا ليس فيهم خادم ومخدوم، بل كلهم يخدم ويخدم، ويستوى في هذا العالم والجاهل، والزارع، والصانع، والقوى والضعيف، والحاكم والمحكوم، إنهم جميعًا أشبه بالآلة الميكانيكية، لا تكون آلة عاملة، ذات قوة محركة، إلا إذا عمل كل جزء من أجزائها، أيا كان وضعه فيها، وأيا كانت قيمته الذاتية بين أجزائها، بل إنهم أشبه بالجسد الإنساني في تجاوب أعضائه جميعًا في العمل على كل ما من شأنه أن يحفظ عليه

حياته، ويوفر له أمنه وسعادته (۲).

وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَا يَحْمَعُونَ ﴾، يعني أن النبوة والاهتداء بهدى الأنبياء، وما يناله المهتدون يوم القيامة خير مما يجمعه الناس في الدنيا من حطامها (٣). قال سيد قطب: «وطبيعة هذه الحياة البشرية قائمة على أساس التفاوت في مواهب الأفراد، والتفاوت فيما يمكن أن

يؤديه كل فرد من عمل، والتفاوت في مدى

إتقان هذا العمل.

وهذا التفاوت ضروري لتنوع الأدوار المطلوبة للخلافة في هذه الأرض، ولو كان جميع الناس نسخًا مكرورة ما أمكن أن تقوم الحياة في هذه الأرض بهذه الصورة، ولبقيت أعمال كثيرة جدًا لا تجد لها مقابلًا من الكفايات، ولا تجد من يقوم بها، والذي خلق الحياة وأراد لها البقاء والنمو، خلق الكفايات والاستعدادات متفاوتة تفاوت الأدوار المطلوب أداؤها، وعن هذا التفاوت في الأدوار يتفاوت في الرزق فقد تختلف أما نسبة التفاوت في الرزق فقد تختلف

من مجتمع إلى مجتمع، ومن نظام إلى نظام،

ولكنها لا تنفى القاعدة الفطرية المتناسقة

مع طبيعة الحياة الضرورية لنمو الحياة، ومن

<sup>(</sup>۱) انظر: لباب التأويل، الخازن ۲/ ۱۷۹، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ۳/ ۳۸٤، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٤/ ٣٥٩.

<sup>(</sup>٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٦/ ١٢٢٣، أضواء البيان، الشنقيطي // ١١٢.

<sup>(</sup>٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١١٤.

ثم لم يستطع أصحاب المذاهب المصطنعة المتكلفة أن يساووا بين أجر العامل وأجر المهندس، ولا بين أجر الجندي وأجر القائد، على شدة ما حاولوا أن يحققوا مذهبهم، وهزموا أمام الناموس الإلهي الذي تقرره هذه الآية من كلام الله، وهي تكشف عن سنة ثابتة من سنن الحياة (١).

### آثار التسخير الإيمانية على العبد

إن تسخير هذا الكون بما فيه من المنافع والنعم العظيمة في المأكل والملبس والمشرب والزينة ووسائل النقل والمواصلات، وغيرها من النعم، يوجب على الإنسان شكر الله تعالى وتعظيمه، وبيان ذلك من خلال النقاط الآتية:

# أولًا: شكر الله تعالى:

من آثار التسخير الإيمانية التي ذكرها القرآن الكريم شكر الله.

وقال سبحانه: ﴿ وَٱلْبُدُنَ جَعَلْنَهَا لَكُمْ مِن شَعَتُهِ اللّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذَكُرُواْ السّمَ اللّهِ عَلَيْهَا صَوَآفٌ فَإِذَا وَيَجَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ الْقَالِعَ وَٱلْمُعَثِّرُ كَذَلِكَ سَخَرَتُهَا لَكُمْ لَمَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿ اللّهِ اللّهِ اللّهِ اللّهِ اللهِ اللهُ اللّهُ اللهُ اللّهُ اللهُ اللهُ اللّهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللّهُ اللهُ اللّهُ اللهُ اللهُ اللّهُ اللهُ اللهُ

إن تسخير البحار وجعلها خاضعة وميسرة لمنافع الإنسان، فتجري عليها السفن في حمل البضائع والأسفار واستخراج الطعام واللباس منها، وتسخير وسائل النقل والمواصلات من الأنعام والسفن والسيارات والطائرات، وغيرها من وسائل النقل.

وتسخير الأنعام من إبل وبقر وغنم فتذبح

<sup>(</sup>١) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٨٧.

وتركب وتحلب، وتمكنه من الانتفاع بها من أعظم النعم على البشر، لذا يوجههم إلى الأدب الواجب في شكر هذه النعمة وتذكر المنعم كلما عرضت النعمة، لتبقى القلوب موصولة بالله عند كل حركة في الحياة.

﴿ وَلَمَلَكُمُ مَنْكُرُونَ ﴾ الله تعالَى، فإنكم إذا شكرتموه زادكم من نعمه، وأثابكم على شكركم أجرًا جزيلًا.

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتُ أَيْدِينَا أَنْعَكُمًا فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ ﴿ مَا عَمِلَتُ أَيْدِينَا أَنْعَكُمًا فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ ﴿ مَا مَلِكُونَ ﴿ مَا مَا مَلِكُونَ ﴿ مَا مَا مَنْ فَعُ مُ مَسْلَالِكُمْ أَفَلًا يَشْكُرُونَ ﴾ وَفَكُمْ فِيهَا مَنْ فَعُ مُ وَمَشَارِكِمُ أَفَلًا يَشْكُرُونَ ﴾ فَالله يَشْكُرُونَ ﴿ الله فَيَهُمُ مَا مَنْ فَعُ مُ مَشَارِكِمُ أَفَلًا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: ٧١-٧٣].

استفهامٌ تعجيبيٌ لتركهم تكرير الشكر على هذه النعم العدة فلذلك جيء بالمضارع المفيد للتجديد والاستمرار لأن تلك النعم متتالية متعاقبة في كل حين (١).

وأصل الشكر في اللغة: الوصف بالجميل على جهة التعظيم على النعمة، من اللسان والجنان والأركان، وقيل: الظهور، ويضاده الكفران، وهو نسيان النعمة وسترها، وشكر العبد لربه: هو أن يستعين بنعمه على طاعته، وشكر الرب لعبده: هو أن يثيبه الثواب الجزيل من عمله القليل، وأما من يستعين التعين

(۱) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٣٠، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٥٣٨، في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١٨٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٣٧/ ٦٩.

بنعم الله على معصيته فليس من الشاكرين؛ وإنما هو كنود كفور.

وقد بين تعالى أن الشكر يزيد النعم والكفر يذهبها، إلا ما كان استدراجًا، فقال في شكر النعمة: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّكَ رَبُّكُمْ لَهِن فَي شَكَر النعمة: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّكَ رَبُّكُمْ لَهِن شَكَرَّتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمُ وَلَهِن كَغَرَّمُ إِنَّ عَدَابِي لَشَدِيدٌ ﴿ ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال في الكفران وعواقبه: ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا مَرْيَةً عَالَتُهُ مَثَلًا مَرْيَةً عَالَمَتُ ءَامِنَةً مُطْمَيِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدَامِن كُلِّ مَكَانِ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ لَكَ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِهَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ السَّ ﴾ [النحل: ١١٢].

وبهذه المناسبة: فعلى كل المسلمين أفرادًا وجماعات، أن يقابلوا نعم الله بالشكر، وأن يشكروها بالطاعة والعبادة لله، وأن يحذروا كفران النعم (٢٠).

ويخص البدن بالذكر لأنها أعظم الهدي، فيقرر أن الله أراد بها الخير لهم، فجعل فيها خيرًا وهي حية تركب وتحلب، وهي ذبيحة تهدى وتطعم، فجزاء ما جعلها الله خيرًا لهم أن يذكروا اسم الله عليها، ويتوجهوا بها إليه وهي تهيأ للنحر بصف أقدامها، ﴿فَأَذَكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآتٌ ﴾، والإبل تنحر قائمة على ثلاث معقولة الرجل الرابعة، ﴿فَإِذَا عِلَيْهَا مَنُونَهُمُا ﴾، واطمأنت على الأرض

<sup>(</sup>۲) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٣/ ٧٧، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣٦٠.

بموتها أكل منها أصحابها استحبابًا، وأطعموا منها الفقير القانع الذي لا يسأل، والفقير المعتر الذي يتعرض للسؤال، فلهذا سخرها الله للناس ليشكروه على ما قدر لهم فيها من الخير حية وذبيحة (۱).

وقوله تعالى: ﴿كَنَاكَ سَخَرْنَهَالَكُمْ لَمُلَكُمْ مَنَكُمُونَ ﴾، أي: ذللناها لكم، وجعلناها منقادة لكم، تفعلون بها ما شئتم من نحر وركوب، وحلب وغير ذلك من المنافع، ولولا أن الله ذللها لكم لم تقدروا عليها؛ لأنها أقوى منكم، ألا ترى البعير إذا توحش صار صاحبه غير قادر عليه، ولا متمكن من الانتفاع به، وقوله هنا: ﴿لَمَلَكُمُ مَنْكُرُونَ ﴾ قد قدمنا مرارًا أن لعل تأتي في القرآن لمعان، أقربها اثنان: أحدهما: أنها بمعناها الأصلي، الذي هو الترجي والتوقع (٢).

وفي الآيات تسخير الله تعالى لهذا الكون دون مقابل يستوجب الشكر، وهذا هو الأدب الواجب في حق المنعم، يوجهنا الله إليه، لنذكره كلما استمتعنا بنعمة من نعمه التي تغمرنا، والتي نتقلب بين أعطافها ثم ننساه.

### ثانيًا: تعظيم الله تعالى:

من آثار التسخير الإيمانية التي ذكرها القرآن الكريم: تعظيم الله تعالى.

(٢) انظر: أضّواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٢٦٠.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَجَ كُلُّهَا وَجَعَلَ لَكُر مِنَ ٱلْقُلْكِ وَٱلْأَنْعَنَدِ مَا تَرْكِبُونَ ۚ ۚ لِتَسْتَوُرا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَن ٱلَّذِى سَخَر لَنَا هَذَا وَمَا كُنّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿ اللَّهِ ﴾ [الزخرف: 17-1].

إن تسخير وسائل النقل والمواصلات من الأنعام والسفن والسيارات والطائرات، وغيرها من وسائل النقل من أعظم النعم على البشرية، لذا يجب على الإنسان تعظيم الله حين ركوبها والاستواء عليها، وقد نبهنا ربنا جل وعلا وعلمنا كيفية هذا التعظيم بقوله: ﴿ وَتَقُولُوا سُبّحَنَ اللّذِي سَحَّرَ لَنَا مِل على التنزيه عن النقائص، وهو من مادة يدل على التنزيه عن النقائص، وهو من مادة السبح والسباحة، وهي: الذهاب السريع البعر أو البر.

و ﴿ النبوت الله موجود وثابت له والدوام، فكأن تنزيه الله موجود وثابت له سبحانه قبل أن يوجد المنزه، كما نقول في الخلق، فالله خالق ومتصف بهذه الصفة قبل أن يخلق شيئًا، وهو يدل على تنزيه الله جل وعلا أكمل التنزيه وأتمه، عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله.

والإشارة في قوله: ﴿ هَنْذَا ﴾، راجعة إلى لفظ ﴿ مَا ﴾، من قوله: ﴿ مَا تَرَكَبُونَ ﴾، وجمع الظهور نظرًا إلى معنى ما؛ لأن معناها عام

<sup>(</sup>١) انظر: في ظلال القرآن، سيدقطب ٤/ ٢٤٢٣.

شامل لكل ما تشمله صلتها، ولفظها مفرد، فالجمع في الآية باعتبار معناها، والإفراد باعتبار لفظها(۱).

وقوله تعالى: ﴿ ثُمُّ تَذَكُرُواْ نِعْمَةً رَبِّكُمُ إِذَا اسْتَوَيِّمُ مَلَيْهِ ﴾، ثم تذكروا مع التعظيم في قلوبكم وألسنتكم نعمة ربكم إذا استويتم عليه، وذلك الذكر هو: أن يعرف أن الله تعالى خلق وجه البحر، وخلق الرياح، وخلق جرم السفينة على وجه يتمكن الإنسان من تصريف هذه السفينة إلى أي جانب شاء وأراد.

فإذا تذكروا أن خلق البحر، وخلق الرياح، وخلق السفينة على هذه الوجوه القابلة لتصريفات الإنسان ولتحريكاته ليس من تدبير ذلك الإنسان، وإنما هو من تدبير الحكيم العليم القدير، عرف أن ذلك نعمة عظيمة من الله تعالى، فيحمله ذلك على الانقياد والطاعة له تعالى، وعلى الاشتغال بالشكر لنعمه التى لا نهاية لها.

وتقييدها في هذه الحالة وقت تبوء النعمة؛ لأن كثيرًا من الخلق تسكرهم النعم، وتغفلهم عن الله، وتوجب لهم الأشر والبطر، فهذه الحالة التي أمر الله بها هي دواء هذا الداء المهلك، فإنه متى ذكر العبد أنه مغمور بنعم الله، وأن أصولها وتيسيرها

(۱) انظر: تفسیر المنار، محمد رشید رضا ۲۲۱/۷، التحریر والتنویر، ابن عاشور ۲۵/ ۱۷۶، أضواء البیان، الشنقیطی ۷/ ۸۲.

وتيسير أسبابها وبقائها ودفع ما يضادها أو ينقصها، كله من فضل الله وإحسانه، خضع لله وذل، وشكره وأثنى عليه، وبهذا تدوم النعمة ويبارك الله فيها، وتكون نعمة حقيقية.

فأما إذا قابلها بالأشر والبطر، ونسي المنعم، وربما تكبر بها على عباد الله، فهذه نقمة في صورة نعمة، وهي استدراج من الله للعبد سريعة الزوال، وشيكة بالعقاب عليها والنكال، نسأل الله أن يوزعنا شكر نعمه (٢). وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾،

وفي الآية: تعظيم الله تعالى وتمجيده وشكره؛ لأنه هو الذي سخر لنا ما نركبه من الأنعام والسفن وذللها، ولو لم يذللها الله لهم لما قدرنا عليها، ولا يخفى أن الجمل أقوى من الرجل، وكذلك البحر لو لم يذلله لهم ويسخر لهم إجراء السفن فيه لما قدروا على شيء من ذلك.

وقد علمنا رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم تعظيم الله عند الركوب.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

<sup>(</sup>۲) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج 8/ ۲۰۱، مفاتيح الغيب، الرازي ۲۷/ ۲۰۱، تيسير اللطيف المنان، السعدي ص ۳٤٥، التفسير المنير، الزحيلي ۲۵/ ۱۲۵.

 <sup>(</sup>٣) انظر: تيسير اللطيف المنان، السعدي ص ٣٤٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/
 ١٧٥.

قال: (إن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا ركب راحلته، كبر ثلاثًا، ثم قال: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون ثم يقول: اللهم إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا السفر، واطو لنا البعيد، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخلفة في الأهل، اللهم اصحبنا في سفرنا، وأخلفنا في أهلنا)، وكان صلى الله عليه وسلم إذا رجع إلى أهله قال: (آيبون تاثبون إن شاء الله عابدون، لربنا حامدون)(۱).

وإن تسخير الأنعام من إبل وبقر وغنم للإنسان وتمكنه من الانتفاع بها من أعظم النعم على البشر، لذا يطلب تعظيم الله حين ذبحها والتسمية عليها، والأكل منها.

وإن الله لا ينتفع من أعمال العباد بشيء، ولكن النفع يعود على الإنسان ذاته.

فما يقدمه من قرابين وهدايا للحرم المكي أو أضاحي أو نذور، فإنما يقصد به تربية الإنسان، وغرس جذور التقوى في نفسه، وأداء واجبه، وشكر نعمة الله عليه، وتكبيره على هداية الله إياه، وإحسانه القول والعمل.

قال الله تعالى مبينًا ما يطلب حال ذبح الإبل: ﴿ وَٱلْبُدُنَ جَعَلْنَهَا لَكُمْ مِّن

شَعَتَهِ اللّهِ لَكُورُ فِيهَا خَيْرٌ فَاذَكُرُواْ السّمَ اللّهِ عَلَيْهَا صَوَافَ فَإِذَا وَيَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَكُلُواْ مِنْهَا وَلَكُونُهَا مَنْكُواْ مِنْهَا وَلَكُونُهَا اللّهُ عَلَيْهَا لَكُورُ لَكُونُهَا لَكُورُ لَكُمْ مَنْفَكُرُونَ آلَ لَنَ يَنَالَ اللّهَ خُومُهَا وَلَا مِمَا وُلَا مِمَا وُلَا مِمَا وُلَاكِن بَنَالُهُ النّقُوي مِنكُمْ كَذَلِك صَخَرَهَا لَكُو لِللّهِ مَنْفُهُمُ كَذَلِك صَخْرَهَا لَكُو لِللّهُ النّقُوي مِنكُمْ كَذَلِك صَخْرَها لَكُو لِللّهِ مَنْفُهُمُ كَذَلِك صَخْرَها لَكُو لِللّهُ مَنْفَى مَا هَدَنكُمْ وَبَشِيرِ سَخْرَها لَكُو لِللّهُ مَنْفُلُ مَا هَدَنكُمْ وَبَشِيرِ السّهُ اللّهُ مَنْفَى مَا هَدَنكُمْ وَبَشِيرِ السّهُ اللّهُ اللّهُ مَنْفَى مَا هَدَنكُمْ وَبَشِيرِ السّهُ اللّهُ اللّهُ مُنْفَى مَا هَدَنكُمْ وَبَشِيرِ السّهُ اللّهُ اللّهُ مِنْفَالِكُ اللّهُ مَنْفُولُ مَا هَدَنكُمْ وَبَشِيرِ السّهُ اللّهُ الللّهُ الللّهُ اللّهُ اللللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ ا

والتكبير في الآية: قيل: إنه ما يكون عند الذبح: بسم الله، الله أكبر، والأحسن أن يفسر بالتعظيم والتقديس والشكر، وترى أيضًا أنه قد أعيد في الآية حديث تسخير الأنعام، وتذليلها للناس، لأن في الإعادة تذكيرًا بالنعمة يبعث على شكرها والثناء على الله من أجلها، والقيام له بما يجب لعظمته وكبريائه، لأنه تعالى سخر لهم تلك البهائم، وأخضعها لتصريفهم، وأراهم ما يصنعون فيها، وكيف يتقربون بها(").

وفي الآية: دلالة على أن التقوى وشكر الله تعالى والإحسان في العمل له جل شأنه من أهم المطالب الشرعية، التي لا يجوز لأحد إغفالها أو التهاون فيها.

<sup>(</sup>۱) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره، رقم ۹۷۸، ۲/ ۹۷۸.

<sup>(</sup>۲) انظر: الوسيط، الزحيلي ۲/ ١٦٤٧، تفسير آيات الأحكام، السايس ص ٥١٢.

### آثار التسخير في عمارة الأرض

لقد ظهر أثر هذا التسخير في الكون في كل مناحي الحياة، في المعدن والنبات، وفي البر والبحر والهواء، فظهرت آثار مادية ومعنوية، وبيان ذلك من خلال النقاط الآتية:

# أولًا: الآثار الحسية:

لقد ذكر القرآن الكريم آثار التسخير المادية في عمارة الأرض.

قال تعالى: ﴿ فَمَخَنَا لَهُ الرّبِعَ بَعْرِي بِأَمْرِهِ لَهُ الرّبِعَ بَعْرِي بِأَمْرِهِ لَوْمَا تَكُا مَنَا وَعَوَّامِ اللهُ اللّهَ اللّهُ اللّهُ وَعَوَّامِ اللّهُ وَعَالَمِ اللّهُ وَعَالَمِ اللّهُ وَعَالَمِ اللّهُ وَعَالَمِ اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللل

وقال سبحانه: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ ٱلرِّيحَ غُدُوُهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْدِهِ إِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا تُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ الله يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن تَعَلِيبَ وَتَعَلْقِيلَ وَجِفَانِ كَالْجُوابِ وَقُدُورٍ رَّاسِينَتْ اعْمَلُوا عَالَ دَاوُدَ شُكُوا وَقَلِلُهُ مِنْ عِادِى ٱلشَّكُورُ الله [سبأ: ١٢-١٣].

بينت الآيات الآثار الحسية، والتي منها: التجارة، والاقتصاد، والصناعة.

فأخبر تعالى أنه سخر لسليمان عليه السلام الريح، ومعنى تسخيره الريح: خلق ريح تلائم سير سفنه للغزو أو التجارة، فجعل الله لمراسيه في شواطئ فلسطين رياحًا موسمية تهب شهرًا مشرقة لتذهب

في ذلك الموسم سفنه، وتهب شهرًا مغربة لترجع سفنه إلى شواطىء فلسطين.

قال تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَنَ ٱلرِّبِحَ عَاصِفَةَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَنرَكْنَا فِهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِمِينَ اللهُ ﴾ [الأنبياء: ٨].

فأطلق الغدو على الانصراف والانطلاق من المكان تشبيها بخروج الماشية للرعي في الصباح، وهو وقت خروجها، أو تشبيها بغدو الناس في الصباح(١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَكُمْ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ﴾، والإسالة: جعل الشيء سائلًا في الأرض كمسيل الوادي، وعين القطر ليست عينًا حقيقة، ولكنها مستعارة لمصب ما يصهر في مصانعه من النحاس، حتى يكون النحاس المذاب سائلًا خارجًا من مساقي، ونحوها من الأنابيب، كما يخرج الماء من العين لشدة إصهار النحاس وتوالي إصهاره، فلا يزال يسيل ليصنع له آنية وأسلحة ودرقًا، وما ذلك إلا بإذابة وإصهار خارقين للمعتاد بقرة إلهية.

شبه الإصهار بالكهرباء أو بالألسنة النارية الزرقاء، وذلك ما لم يؤته ملك من ملوك زمانه، ويجوز أن يكون السيلان مستعارًا لكثرة القطر كثرة تشبه كثرة ماء العيون والأنهار (٢).

<sup>(</sup>۱) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ۲۲/ ۱۵۸.

<sup>(</sup>٢) انظر: المصدر السابق.

وقوله تعالى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَسُاءُ مِن شريفة، عَسَرِبَ ﴾ قصور حصينة ومساكن شريفة، سميت بها؛ لأنها يذب عنها ويحارب عليها، والمحاريب: جمع محراب، وهو الحصن الذي يحارب منه العدو والمهاجم للمدينة، أو لأنه يرمى من شرفاته بالحراب، ثم أطلق على القصر الحصين، وقد سموا قصور غمدان في اليمن: محاريب غمدان، وهذا المعنى هو المراد في هذه الآية، ثم أطلق المحراب على المكان الذي يختلى فيه لعبادة، فهو بمنزلة المسجد الخاص (۱۱).

والتماثيل: هي الصورة الممثلة، أي: المجسمة، فكان النحاتون يعملون لسليمان تماثيل للملائكة والأنبياء على ما اعتادوا من العبادات ليراها الناس فيعبدوا نحو عبادتهم (٢).

والجفان: جمع جفنة، وهي القصعة العظيمة التي يجفن فيها الماء، وشبهت الجفان في عظمتها وسعتها بالجوابي، وهي جمع جابية، وهي: الحوض العظيم الواسع العميق، الذي يجمع فيه الماء لسقي الأشجار والزروع (٣).

وقوله تعالى: ﴿وَغَوَّاصٍ ﴾، من يغوصون له من الشياطين، أي: يغوصون له في البحار فيستخرجون له منها الجواهر النفيسة، كاللؤلؤ والمرجان، والغوص: النزول تحت الماء، والغواص: الذي يغوص البحر ليستخرج منه اللؤلؤ ونحوه، أن الشياطين المسخرين له يعملون له عملًا دون ذلك، أي: سوى ذلك الغوص المذكور، أي: كبناء المدائن، والقصور، وعمل المحاريب، والتماثيل، والجفان، والقدور الراسيات، وغير ذلك من اختراع الصنائع العجيبة (ق).

وظهر أثر هذا التسخير في الكون في كل مناحي الحياة، في المعدن والنبات، وفي البر والبحر والهواء، فشيدت ناطحات السحاب، وأقيمت السدود العملاقة لإنتاج الطاقة، وحولت الصحاري إلى مناطق زراعية خصبة، وعمرت المدن الكبيرة.

ومن هذه الأثار الحسية: ما نشاهد من مصانع تشاد لصناعة وسائل النقل بمختلف أنواعها، السفن البحرية، الشراعية والنارية، والطائرات والسيارات والقطارات، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْفُلَاكِ وَالْأَنْعَكِمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ [الزخرف:

٦.[ ١

ومن آثار التسخير الحسية التي ذكرها القرآن الكريم: صناعة الدروع والأسلحة

 <sup>(</sup>٤) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٢٣٦، الوسيط، طنطاوي ٩/ ٢٣٩.

<sup>(</sup>۱) انظر: الهداية، مكي بن أبي طالب ٩/ ٥٨٩٥، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٤٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٦٠.

<sup>(</sup>۲) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٤٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٦٢.

<sup>(</sup>٣) انظر: المصادر السابقة.

من الحديد.

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَكُهُ صَنْعَكَةَ لَبُوسِ لَكُمُ لِنُحْصِنَكُم مِنْ بَأْسِكُمُ فَهَلْ أَنتُمُ شَكِرُونَ ﴿ الْأَنبِاء: ٨٠].

وقال سبحانه: ﴿ ﴿ وَلَقَدْ ءَالَيْنَا دَاوُرَدَ مِنَّا فَضَّلَا يَكُوبُ اللَّهِ اللَّهُ الْخَدِيدُ اللَّهُ اللَّهِ اللَّهُ الْخَدِيدُ اللَّهُ السَّرَدُ وَاعْمَلُوا مَنْ اللَّهُ اللّهُ اللَّهُ اللَّاللَّهُ اللَّهُ اللَّا الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ ا

ومن آثار التسخير الحسية التي ذكرها القرآن الكريم: صناعة السدود، فيصور القرآن ما صنعه ذو القرنين ليوقف زحف يأجوج ومأجوج على الآخرين.

فقال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَنَذَا ٱلْقَرْيَّيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُنْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ جَعَلُ لَكَ خَرْمًا عَلَىٰ أَن جَعْلَ بَيْنَا وَبِيْنَامُ سَدًّا ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِي فِيهِ رَبِي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوْقٍ أَجْعَلَ بَيْنَكُورُ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا وَيَ خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوقٍ أَجْعَلَ بَيْنَكُورُ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا فَالَ انفُخُواً حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ، نَاكَ قَالَ ءَاتُونِي أَفْهَدُونُ وَمَا عَلَيْهِ قِطْ رَا اللهِ فَمَا أَسْطَلَعُواْ أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَلعُواْ لَهُ نَقْبًا ﴿ فَهَا اللهِ قَالَ عَالَىٰ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَلعُواْ لَهُ نَقْبًا ﴿ ﴾ [الكهف: ٩٤-٩٧].

وكان إقامة هذا السد لدفع الأذى عن الإنسان، وقد استخدمت السدود اليوم في توليد طاقة المياه الجارية، فيقيم على مسارها عجلات تحركها المياه فتدير

الطواحين لغلاله.

كذلك عرف الإنسان كيف يقيم مراوح تحركها الرياح، وكيف يحول تلك الحركة إلى إدارة الطواحين، وساهم هذا الاختراع في توليد الطاقة الكهربائية، التي تستخدم في جميع المجالات والاحتياجات الإنسانية، ومن الرياح ما يحمل النفع للناس، ففيها تحريك السفن التي تنقل الناس والتجارة، ومن الرياح ما يحمل السحاب ويسوق المطر.

قال تعالى: ﴿ وَتَمْرِيفِ ٱلرِّيَحِ وَٱلسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيِّنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَتِ لِعَوْمِ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤] (٢).

ومن آثار التسخير المادية: صناعة الأسورة وأدوات الزينة من الذهب، واستخراج الأحجار الكريمة في خدمة البشر. فمن المياه كان يستخرج اللؤلؤ والمرجان، واللؤلؤ: إفراز كلسي تحتضنه قواقع معينة ذات ضلفتين (صدفتين)، ويكون اللؤلؤ في حبيبات مستديرة أو قريبة من الاستدارة في حجم حبة الحمص، وقد تكون أصغر أو أكبر، بيضاء اللون عادة، وقد يشوبها لون آخر، واشتهرت المياه الدافئة بوجود أصداف اللؤلؤ، ويمارس غواصو اللؤلؤ صناعة الحصول على اللؤلؤ

<sup>(</sup>٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٦٣، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٢٣/ ٢٣١.

<sup>(</sup>۱) انظر: التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية، على صبح ص ۲۸۷.

من أصدافه، أما المرجان فيكون في أعواد متشعبة ذات لون برتقالي أو أحمر، ولها مظهر أعواد النبات، إلا أنها حيوان بحري من عائلة المرجانيات، وهو حيوان رخوي يحتمي داخل أعواد كلسية مجوفة، هي أعواد المرجان، ويمكن الحصول على اللؤلؤ وعلى المرجان من المياه المالحة أساسًا، ومن المياه العذبة في ظروف خاصة.

قال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتُوِى ٱلْبَحْرَانِ هَلَدَا عَذْبُ فُرَاتُ سَايَعٌ شَرَابُهُ, وَهَلَدًا مِلْحُ أُجَاجُ وَمِن كُلِّ تَأْكُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [فاطر: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿ يَغَرُّعُ مِنْهُمَا ٱللَّوْلُوُ وَٱلْمَرْبِعَاكُ ۞ ﴾ [الرحمن: ٢٢](١).

## ثانيًا: الآثار المعنوية:

لقد ذكر القرآن الكريم الأثار المعنوية للتسخير، قال تعالى: ﴿ ﴿ وَلَقَدْءَانَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضَلًا يَنجِبَالُ أَرِي مَعَلَّهُ وَالطَّيْرُ وَالْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿ أَن اَعْمَلُ سَنبِغَنْتِ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ فَالْعَمْلُونَ بَعِيدٌ ﴿ اللَّهُ وَلَقَمَلُونَ بَعِيدٌ ﴿ اللَّهُ اللَّالَّاللَّالِي اللَّهُ اللَّا اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ

بينت هذه الآية الصورة الكريمة والثناء الجميل للإنسان الذي يحقق معنى التسخير، وفي هذا التسخير للجبال والطير مع كونه معجزة لداود عليه السلام وكرامة وعناية من

الله به إذ آنسه بتلك الأصوات في وحدته في الجبال وبعده عن أهله وبلده، على التمام والكمال، وإذا كان داود وسليمان قد خلع الله سبحانه وتعالى عليهما هذه الخلع العظيمة من نعمه، فإن هذه النعم قد وضعها الله تعالى للبشرية جميعًا، وتسخير هذا الكون بما فيه من الطاقات الهائلة التي تغطي احتياجات البشرية هو الذي يحقق للأمة كرامتها وعزها ومجدها.

قال تعالى: ﴿ ﴿ وَلَقَدْ كُرَّمْنَا بَنِي عَادَمَ وَمُلْنَاهُمْ فِي ٱلْبَرِ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَنَهُم مِنَ ٱلطَّيِبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّتَنَّ خَلَقْنَا تَقْضِيلًا الإسراء: ٧٠].

وقد جمعت الآية خمس منن: التكريم، وتسخير المراكب في البحر، والرزق من الطيبات، والتفضيل على كثير من المخلوقات. والتكريم: جعله كريمًا، أي: نفيسًا غير مبذول ولا ذليل في صورته ولا في حركة مشيه وفي بشرته، والتكريم بما جعل الله فيه من المعارف والصنائع، وقبول التطور في أساليب حياته وحضارته، وهذا من كرمه عليهم وإحسانه الذي لا يقادر قدره، وكرمهم بالعلم والعقل، وإرسال الرسل فكرمهم بالعلم والعقل، وإرسال الرسل وإنزال الكتب، وجعل منهم الأولياء والأصفياء، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والأصفياء، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة

<sup>(</sup>۱) انظر: القرآن وعلوم الأرض، محمد سميح ص ۱۹۱.

والباطنة، ﴿وَمَلْنَكُمُ فِي ٱلْبَرِ ﴾، على الركاب من الإبل والبغال والحمير والمراكب البرية، ﴿وَٱلْبَحْرِ ﴾، في السفن والمراكب، ﴿وَرَنَقَنَكُمُ مِنَ ٱلْمَلِّبِيَّتِ ﴾، من المآكل والمشارب والملابس والمناكح، فما من طيب تتعلق به حوائجهم إلا وقد أكرمهم الله به ويسره لهم غاية التيسير، ومن التكريم: أن يكون الإنسان قيمًا على نفسه، محتملًا تبعة اتجاهه وعمله، فهذه هي الصفة الأولى التي بها كان الإنسان إنسانًا، حرية الاتجاه وفردية التبعة، وبها استخلف في دار العمل، فمن العدل أن يلقى جزاء اتجاهه وثمرة عمله في دار الحساب(۱).

وإن آيات التسخير في القرآن الكريم فيها دلالة عظيمة ودعوة للمؤمنين إلى أن هذا التسخير يجب أن يستفيدوا منه في الحصول على كل الطاقات المسخرة في هذا الكون بما يغطي جميع الاحتياجات، ويدفع المسلمين إلى النهضة، ويلفتهم إلى جلال القرآن، ويحركهم إلى الانتفاع بقوى هذا الكون العظيم الذي سخره الله لنا، انتفاعًا يعيد لأمة الإسلام نهضتها ومجدها

(۱) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٦٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٦٣، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ۱۱/ ۷۸۳، التحرير والتنوير، ابن عاشور ۱۵/ ۱۲۰، في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/

وكرامتها، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَنَوَاتِ وَاللَّدِّرُ عَن السَّمَنَوَاتِ وَاللَّدِّرُ عَن السَّمَنَوَاتِ وَاللَّدُرُ عَن قَوْمٍ لَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿ وَمَا تُغْنِى ٱلْدَيْنَ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ اللَّمَنَوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ سبحانه: ﴿ وَسَخَرَلَكُمُ مَّا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ سبحانه: ﴿ وَسَخَرَلَكُمُ مَّا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَكَيْنَ لِقَوْمٍ يَنْفَكَّرُونَ اللَّهُ الْمُلْعُلِمُ اللَّهُ الْمُؤْلِقُلْمُ الْمُلْعُلُولُولُولُولُولُولُولُولُولُولُولُ اللَّهُ الْمُؤْلِقُلْمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّه

فلا يليق بالمسلمين وهم المخاطبون بهذا أن يفروا من وجه هذه المنافع العامة، ولا أن يزهدوا في علوم الكون، ولا أن يحرموا أنفسهم فوائد التمتع بثمرات هذه القوى العظيمة التي أودعها الله لخلقه في خزائن سماواته وأرضه، ولهذا نص علماؤنا على أن تعلم تلك العلوم الكونية وحذق هذه الصناعات الفنية فرض من فروض الكفايات؛ ما داموا في حاجة إليها لمصلحة الفرد أو المجموع، وذلك لأن البقاء في هذه الحياة للأصلح، والحياة في هذا الوجود إنما تقوم على التمهر في العلوم، وعلى السبق في حلبة الصناعات والفنون.

ومما يشير إلى هذه المعاني كلها قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَالَى: ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَا الْمُشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِمْ وَإِلَيْهِ النَّشُورُ الله الله الله على ما قبله بالفاء، أي: بسبب تذليلها بتيسير المشي في الرجائها، وطلب الرزق في أنحائها بالتسبب في فيها من زراعة وصناعة وتجارة إلخ، والأمر في قوله تعالى: ﴿ فَاتَشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن في قوله تعالى: ﴿ فَاتَشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن

أحق بها من غيرها.

والاستثمار والإنتاج، فما نقص عليها من أمور دنياها إلا بقدر ما قصرت هي في القيام بهذا العمل، وأضاعت من حقها في هذا الوجود، وإن على الأمة الإسلامية أن تعمل على استثمار وإنتاج كل حاجياتها حتى الإبرة؛ لتستغنى عن غيرها، وإلا احتاجت إلى الغير بقدر ما قصرت في الإنتاج، وهذا هو واقع العالم اليوم، إذ القدرة الإنتاجية هي المتحكمة وذات السيادة الدولية، وقد أعطى الله العالم الإسلامي الأولوية في هذا كله، فعليهم أن يحتلوا مكانهم، ويحافظوا على مكانتهم، ويشيدوا كيانهم بالدين والدنيا معا(۱).

قال عبد الكريم الخطيب: «ولكن هذه الخلقة المهيأة لأن تكون بمقام الخلافة لله

ومن الآثار المعنوية للتسخير في قوله تعالى: ﴿ فَسَخَّرُنَا لَهُ ٱلرِّيعَ تَجْرِى بِٱمَّرِهِ، لُخَآةً حَيْثُ

تعالى على الأرض، لا يتحقق لها هذا، حتى رِّزْقِمِ ﴾، للإباحة، ولكن التقديم لهذا الأمر تحقق هي ذاتيتها، وتخرج القوى الكامنة بقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَكُ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فيها، وتفجر الطاقات المندسة في كيانها، ذَلُولًا ﴾، فيه امتنان من الله تعالى على كالنواة التي تضم في كيانها عناصر شجرة خلقه مما يشعر أن في هذا الأمر مع الإباحة عظيمة، أو نخلة باسقة، تظل هكذا شيئًا توجيهًا وحثًا للأمة على السعي والعمل ضئيلًا ميتًا، حتى تندس في صدر الثرى، والجد، والمشي في مناكب الأرض من كل ثم تتفاعل معه، وتخرج خبأها بعد جهد جانب؛ لتسخيرها وتذليلها، مما يجعل الأمة وصراع، أما الإنسان الذي لا يعمل على الانتفاع بما أودع الله فيه من قوى، فسيظل وعليه، فقد وضع القرآن الأمة الإسلامية كتلة باردة من لحم ودم، لا يرتفع كثيرًا عن في أعز مواضع الغني، والاستغناء مستوى أدنى الحيوانات وأحطها منزلة،

هذا هو مقام الإنسان في العالم الأرضي، إنه سيد المخلوقات كلها في هذا العالم، مادام محتفظًا بإنسانيته، عاملًا على الارتقاء بوجوده، أما المخلوقات التي في غير هذا العالم الأرضي، فلا شأن للإنسان بها، كما أنها لا شأن لها بالإنسان، ومن ثم فالمفاضلة بينه وبينها شيء غير وارد، وغير منظور إليه، إذ لا تعامل بين الإنسان وبين تلك المخلوقات!»(۲).

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ

في أَحْسَنِ تَقُويمِ اللهِ ثُمَّ رَدَدْنَهُ أَسْفَلَ سَفِلِينَ اللهِ

إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّلِيحَاتِ فَلَهُمْ ٱجْرُّ عَيْرُ مَنُونِ

التين: ٤-٦].

<sup>(</sup>٢) التفسير القرآني للقرآن ٨/ ٢٥.

<sup>(</sup>١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٢٣٨، مناهل العرفان، الزرقاني ١/ ٣٥.

وقال سبحانه: ﴿ وَلِسُلِتَمَنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ [سبأ: ١٢].

وقال جل وعلا: ﴿ وَنَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْنَغُواْ مِن فَضَّلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشَكُّرُونَ ﴾ [فاطر: ١٢].

وهكذا صور القرآن الكريم الحرف الصناعية تصويرًا معجزًا ليرسي الخلق الإسلامي، خلق القرآن الكريم؛ فيتحقق ما يأتي: التشريع والتقرير لهذه الصناعات، وأنها مشروعة من قبل الله عز وجل: ﴿ هُوَ النَّا الله عز وجل: ﴿ مُو النَّذِي جَمَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَآمَشُوا فِي مَنَاكِبَهَا وَكُوا مِن رِّزْقِهِم الله عنها.

وغرس القيم وتنمية الفضائل من خلال التشريع لهذه الصناعات المتنوعة، لتحقق

الغاية من الإسلام وهي الأخلاق، كما جاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)(١)، كما حث الإسلام على العمل والصمود فيه، فخير الكسب ما كان من عمل اليد.

عن المقدام رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (ما أكل أحد طعامًا قط، خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام، كان يأكل من عمل يده) (٢)(٣)(.

#### موضوعات ذات صلة:

الأرض، الأنهار، الشمس، القمر، الجبال

<sup>(</sup>۱) أخرجه أحمد في المسند، رقم ١٩٥٢، ۱۲ / ۱۲، والبيهقي في السنن الكبرى رقم كتاب الشهادات، باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها، ٢٠٧٨٢، ١٠/ ٣٢٣. والحديث صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ١١٢.

<sup>(</sup>٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، رقم ٢٠٧٢، س/ ٨٠٠

<sup>(</sup>٣) انظر: النكت، القصاب ٣/ ٢٨٧، روح المعانى، الألوسى ١١/ ١٦٩.